# الإسلام تحرير للإنسان

obeikandl.com

obeikandl.com

# الإسلام تحرير للإنسان

استقر فى أذهان جميع الشعوب والأمم أنهم خُلِقوا من أب واحد ، هو : آدم ، وأم واحدة ، وهى : حواء ، وكان سبب هذا الإجماع راجعاً إلى ورود قصة الخلق فى تراث كل الشعوب على اختلافها فى نوعية الثقافة ودرجة التحضر ، حتى أصبحت من المسلمات الفكرية ، والمعتقدات الراسخة ، سواء كان ذلك قائماً على أساس " فولكلورى " ، أومعتمداً على مسلمات اجتماعية ، أو مبادئ دينية ؛ فقصة بدء الخلق وردت فى التراث الشعبى ، وسُجِّلت فى النصوص الدينية المقدسة على اختلاف فى التفصيل والإيجاز ، وتفاوتت فى تحديد اسم الإنسان الأول ، ورفيقته ، أو إغفال اسم أى منهما .

وكان من مقتضيات الاشتراك فى مصدر الخلق أن يشترك الناس جميعاً فى الصفات والعادات والتقاليد ، فتتوحد أفكارهم وميولهم ، ويتشابه سلوكهم ، فلا تنافر فى نشاطهم ، ولا تعارض فى نظرتهم للحياة ، بل تناغم وانسجام ، وتوافق ووئام .

لكن الواقع يناقض ذلك ، فمن اختلاف فى الأشكال والهيئات ، إلى تعارض فى الأفكار والميول ، ومن تناقض فى المشارب والاتجاهات ، إلى تناحر فى الغرائز والممتلكات ، حتى أصبح من النادر جداً – بل يكاد يكون من المستحيل – أن يتفق اثنان اتفاقاً كاملاً فى أى صفة من صفات الإنسان ، فضلاً عن اتفاق الشعوب والجماعات ، فاختلاف الناس وتباينهم لازم من لوازم الحياة الإنسانية ، بل إنه – كما يذهب بعض العلماء – ضرورى فى الأشكال والهيئات ، حتى لا تضطرب الحياة ؛ إذ لو خُلِق الناس جميعاً نسخة واحدة فى الصورة والملامح لأصبح التمييز بين شخص وآخر عسيراً ، فتضيع الحقوق ، وتختلط المصالح، مما يحول الحياة إلى فوضى لاضابط لها ، ويغرقها فى غياهب من الظلمات الحالكة ، حيث لاشعاع يحدد معالمهـــا ، ولاذرة من نور تقود مسيرتها .

ويمكن أن تتصور ارتباك الحياة واختلاط الأمور لو خُلِق الناس جميعاً نسخة واحدة ، عندما تمعن التفكير فى الطريقة التى يمكنك بها فى هذه الحالة أن تميز زوجتك من الأخريات ، أو

تتعرف على أصحابك وأصدقائك ، ومن يتعاملون معك فى جميع نواحى الحياة .. هيهات ... بل إن ذلك يصبح مستحيلاً ، وصدق الله إذ يقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ ﴿١٣﴾ [ الحجرات: ١٣]

أى خلقكم مختلفين فى الهيئة والصورة واللون ، وجعلكم متباينين فى الأعراق والأجناس ، ليعرف كلٌّ منكم الآخر بما تميز به فى شكله وصورته وهيئته ، وبما اختلف به عنه فى لونه وجنسه ، وشيعته .

كذلك كان الاختلاف فى الأفكار والرؤى ضرورياً ؛ فلو اتفق الناس فى تصوراتهم للحياة ، وتطابقت أفكارهم فى التعامل مع الطبيعة ، واتحدت رؤاهم حول أسلوب واحد فى مجال النشاط الإنسانى ، لجمدت الحياة عند مستوى الصورة الأولى لحياة الإنسان على هذه الأرض ، ولظل الإنسان هائماً على وجهه فى الغابات والوديان ، يأكل من الأشجار ،ويشرب من مجارى المياه ، ويحيا على ما تجود به الطبيعة من تلقاء نفسها عليه ، فلا تغيير ولا ابتكار ، بل انكماش وتقوقع ، لأن شرارة الابتكار تنبع من احتكاك الأفكار المختلفة ، ويأخذ التغيير طريقه فى حياة الإنسان من ثنايا التنوع فى الأفكار والرؤى ، وتُبْنَى الحضارات من رحم تصارع الآراء ، فلا حضارة لقوم ظنوا أن الاتفاق واجب مقدس ، أو اعتقدوا أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، فطفقوا يحاربون أصحاب الأفكار الجديدة ، ويتعقبون كل من ينادى بالابتكار والتغيير .

ظاهرتان أساسيتان فى نظام الحياة الإنسانية وتجددها :

**الأولى:** تباين الناس فى أشكالهم وصورهم ، حتى لايختلط الحابل بالنابل ، فيعرف كل واحد قرينه وصديقه ، ومن يتعمل معهم ، ويميزهم عن غيرهم فتستوى الأمور، وتتحدد مصادر الواجبات والالتزامات ، ويُعْرَف كلٌّ بصفاته وملامحه ، فينضبط وقع الحياة ، وتنتظم نغماتها .

الثانية: اختلافهم فى القدرات الذهنية والملكات الفكرية ، حتى لايصبح الناس صورة مكررة فى مجال الفكر والنظر ، تؤدى إلى جمود فى الحياة ، وعجز عن الابتكار والتغيير اللذين هما أساس بناء الحضارات ، فلو جمد الناس على صورة واحدة ، وحاربوا التغيير , وأجهضوا كل ابتكار فكرى ، ماوُجِدَت حضارة على وجه الأرض ، ولأصبحت حياة الإنسان على هذه الأرض شيئاً آخر مختلفاً كل الاختلاف عما نعيشه ونتمتع به الآن . فالاختلاف الفكرى سنة الله فى الأرض ، وهو لازم من لوازم الحياة البشرية ، وضرورى لاستمتاع الإنسان بما خلقه الله فى هذا الكون .

ومن هنا جاء الاختلاف فى العقيدة ؛ إذ هى تَصَوُّرٌ لما يمكن أن يعين الإنسان على مواجهة أخطار الطبيعة وتقلباتها ، وتَخَيُّلٌ للقوة التى تساعده عند الشدائد ، وتُلهِمُه الطريق التى تؤدى به إلى النجاح ، وتحفظه من الفشل . ولما كان التصور عملية فكرية تختلف قدرتها من إنسان لآخر ، وتتنوع عناصرها طبقاً لخصائص الشعوب الفكرية ، وأسلوبها فى الحياة ، ودرجتها على سلم الحضارة والرقى ، اختلفت صورة هذه القوة ، بين عبادة لقوى خفية ، ترمز إليها الأشجار والأحجار ، إلى تقديس للأشخاص والأرواح.....إلى.....إلى....الخ حتى اهتدى أناس بتفكيرهم المتميز عن الآخرين ، وبملكاتهم الفكرية المتفوقة على أقرانهم إلى معبود واحد لاشريك له ، إذ لولا الاختلاف والتنوع فى مجال الفكر ، لظل الإنسان على عقيدته البدائية .

ولو لم يباشر الإنسان حقه فى حرية التفكير ، لظل أسيراً ، مكبلاً بترهات العقلية البدائية ، وتصورات الإنسان الأول ، حيث كان نشاطه مقيداً بِكَمٍّ كبير من الطقوس والتعاويذ ، فلا يُقْدِم على عمل إلا بعد استشارة القوى الخفية التى كانت مسيطرة سيطرة تامة على عواطفه ووجدانه ، فهو خاضع فى كل حركاته وسكناته للأشباح والأرواح ، تُوَجِّهه فى أحلامه ورؤاه ، وتحدد له أسلوب حياته وطريقة معيشته ، يقول " نساو Nassaw ":كلما بدا للإفريقى شىء غير معتاد ، اتجه عقله إلى الشعوذة ، أى إلى ماوراء الطبيعة ، لكى يجد له تفسيراً ، دون أن يبحث عن تفسير له فيما يسميه المتحضرون بالأسباب الطبيعية . والواقع أن عالَم ماوراء الطبيعة هذا

يعتبر عاملاً فعالاً دائماً فى حياة البدائى ، فنراه يلجأ إليه لتفسير كل مايقع أمامه ، ويعزو إليه من الشرعية والمعقولية مانعزوه نحن إلى قوى الطبيعة المعترف بها . " [٤٩]

عاش الإنسان فى العصور الأولى تحت أوهام وخرافات حدَّت من انطلاق فكره ، وجمَّدت ملكاته الذهنية فى إطار نوع من التقاليد والعادات الدينية ، يعيش طبقاً لطقوسها ، ويتحرك حسبما تمليه عليه من الدلائل والإشارات ؛ فقد انحصرت مدركاته العقلية فى استجلاء أفعال القوى الغيبية التى كان يشعر بأنها تحيط به من كل جانب . ومن طبائع هذه القوى - حسب اعتقاده - أنها لاتُرَى ، ولاتُدْرَك بالحواس ، كما أنها لاتكشف عن نفسها إلا فى ظواهر قد تكون واضحة أوغير واضحة ، أو ضعيفة الدلالة . كثيرة الورود أو قليلته ، ومن هنا يتعين على البدائيين أن يعرفوا كيف يميزونها ، ويجمعونها ، ويفهمونها . ومن الظواهر التى ساعدتهم على معرفة ماتريده منهم هذه القوى الغيبية : الأحلام ، إذ أن " من المعروف أن العالَم المرئى والعالَم غير المرئى يُكوِّنان فى نظر العقلية البدائية عالَماً وَاحِداً ، فالاتصال عندهم مستمر بين مانسميه بالحقيقة الحسية وبين القوى الغيبية ، ولكن هذا الاتصال لايحصل بصورة أتم وأصرح إلا فى الأحلام ، حيث ينتقل المرء فيها من أحد العالَمين إلى الآخر ذهاباً وإياباً دون أن يشعر . وهذا فى الواقع هوتصور البدائيين المعتاد للحلم : تترك الروح الجسم الذى تحل فيه — مؤقتاً - وتذهب فى بعض الأحيان بعيداً جداً لتتحدث مع الأرواح أو الأموات ، وإذا ما استيقظ الشخص رجعت إليه وأخذت مكانها فى جسمه لذلك إذا منعها سحر أو حادث آخر من دخوله ثانية ، فقد يصاب صاحبها بمرض يتبعه الموت . وفى بعض الأحيان تأتى أرواح الأموات نفسها ، أو بعض القوى الأخرى لزيارة روح الحالم أثناء نومه .وهكذا يعمل الحلم على مدّ البدائيين بمعلومات لا تقل قيمتها ، بل قد تزيد على قيمة المدركات التى يحصلون عليها أثناء اليقظة ، وهم يقبلونها قبولهم للمدركات الأخرى دون أن يحتاجوا فى ذلك إلى الفلسفة الطبيعية التى يعزوها إليهم : " تيلر Tylor " ومدرسته .

---

٤٩ ) ليفى بريل صـ ٢١- ٢٢ نقلا عن : Fitichism in south Afrika : R.H.Nassau

ولكنهم ليسوا ضحايا لخداع سيكولوجى فاضح كما يدعى البعض ، بل يعرفون جيدا كيف يميزون بين الحلم ومدركات اليقظة ، ويعلمون أنهم لايحلمون إلا حين ينامون . غيرأنهم يؤمنون إيماناً تاماً بأن الأحلام تضعهم فى علاقة مباشرة مع القوى التى لاتُرَى . "[٥٠]

كتب " إلسدن بست Elsdon Best" يقول : " قالت لى هذه السيدة العجوز ذات يوم : يمكننى الاعتقاد بكل سهولة أن الناس الذين يموتون فى سن الهرم يعودون إلى شبابهم فى "الرينجا Reinga " ؛ فقد ذهبت إلى "الرينجا " فى الليلة الماضية ( تعنى أنها حلمت ) ورأيت فيها "كيريويرا kiriuwera" ( امرأة عجوز ماتت حديثاً ) وكانت عليها سيماء الجمال والشباب الغض . وإذا قال أحد الأهالى بأنه كان فى " الرينجا " فإنه يعنى أنه رأى حلماً ؛ حكى رجل مسن يقول:كنت " الرينجا " فى الليلة الماضية ورأيت فيها صديقى العجوز الذى مات منذ زمن طويل ... وقد عرفت من هيئته أن الجو سيكون صحوا فى الغد . "[٥١]

وقد لاحظ " كولنسو Kolenso " الملاحظة نفسها ، حيث يقول : " إنهم يعتقدون فى حقيقة الأحلام ، ولديهم منها أنواع كثيرة ، منها الحسن ، ومنها السيىء ... وهم مقتنعون بأن الأحلام عبارة عن ذكريات مارأوا فى " الرينجا " (عالم غير مرئى ، وهو مقر الأموات) حيث تذهب الروح فى أثناء نوم الجسد . "[٥٢]

بل إنهم كانوا يعتبرون ما يرونه فى أحلامهم حقائق لايتطرق إليها شك ؛ حدث فى إفريقيا الاستوائية أن رأى أحدهم فى المنام أنه قام برحلة ، فاعتبر أنها وقعت بالفعل فى عالم الحقيقة ، فلبس الملابس الأوروبية ، وجلس على باب عشته ، ولما سئل عن ذلك قال : إنه حلم فى الليلة الماضية أنه زار البرتغال وانجلترا وبعض الأقطار الأخرى ، ولذلك لبس الملابس الأوروبية بمجرد

---

٥٠) ليفى بريل : ٩٧-٩٨

٥١) ليفى بريل صـ ٩٩ - ١٠٠ نقلاً عن : Elsdon Best : Maori Eschatology فى Transaction of the New Teai and Institute ، مجلد ١ ) ٨٦٨) صـ ٤١- ٤٢

٥٢) ليفى بريل ص- ١٠٠ نقلاً عـن : و W'. كولينسو W. Kolenso : Trasaction of the Maori Races of New Zealand فى New Zealand Institute مجلد ١ ( ١٨٦٨ ) صـ ١٤ - ٤٢.

أن استيقظ من نومه !! وقال لرعاياه : إنه آت من بلاد البيض ، وكان على من يأتون لرؤيته من شيب وشبان أن يصافحوه مهنئين بسلامة الوصول .

وقد سجل العلماء والباحثون كثيراً من هذه الروايات التى توضح أن الإنسان البدائى لم يكن حراً فى حياته ، بل كان مقيداً بتعاليم القوى الغيبية ، تلك التعاليم التى كانت تأتيه عن طريق الطقوس التى فرضتها عليه عادات المجتمع وتقاليده . ولم يكن أحد يستطيع الخروج عما تعارف عليه القوم ، وخاصة ماكان متعلقاً بالقوى الغيبية ؛ لأنها تسيطر على حياة المجتمع ، وتوجه أفراده إلى ماتحب وترضى ، فلا حرية له فى الصيد والقنص ، بل يتبع ماتمليه عليه هذه القوى الغيبية ، ولا إرادة له فى مأكل ولا مشرب ، بل يتناول ما تسمح به مما حوله ، بل إن طريقة حركاته وسكناته ، وأسلوب اتصاله بمن حوله بما فيها قيامه بواجباته الزوجية مبرمج سلفاً ، أو يُوَجَّه آنياً عند الطلب من ظواهر ومدركات أملته عليه هذه القوى ، حيث سلم نفسه لإرادتهاوتوجيهاتها .

ومن يطلع على ماجمعه الرحالة والباحثون عن طبيعة حياة الإنسان البدائى ، لايجد لهذا الإنسان ذرة من حرية ، فلا إرادة له ، بل هو خاضع خضوعاً كلياً لمعبوده ، وليس من حقه أن يفعل مايحب ، بل هو مضطر لتنفيذ توجيهات القوى المتسلطة عليه ، ولم يستطع أحد الفكاك من هذه القيود ، اللهم إلا بضعة أفراد ، هداهم تفكيرهم إلى إظهار نوع من التمرد على هذه المعتقدات ، وتحملوا فى سبيل ذلك ألواناً من العذاب والاضطهاد ، اشتد عليهم أحياناً حتى أزهق أرواحهم ، وسقط تحت وطأته كثير من أتباعهم .

وعلى الرغم من تحجر الأكثرية على المأثورات ، وعبوديتهم لها ، ودفاعهم المستميت عنها لدرجة قتل أبنائهم وذويهم إذا تمردوا عليها، أو انتقدوا عوارها ، محاولين تصحيح ما عليه آباؤهم من ضلال جَمَّد حياتهم ، وسلب إرادتهم ، وعطل تفكيرهم ؛ فقد ظهر على امتداد التاريخ البشرى كوكبة من المفكرين ، دعوا إلى تصحيح مسار الفكر الإنسانى ، وجاهدوا فى سبيل تحرير الإنسان وتنويره فكرياً وعقدياً ، حتى نهضت الإنسانية من سباتها وتخلصت من قيودها ، فعرفت معنى الحرية ، وذاقت لذة التفكير فيما حولها ومن حولها ، فأدركت أن العقل — ولا شىء غيره – هو محور الوجود ، فهو الذى يدرك الظواهر ، ويحللها ، ويستنتج منها ما

يساعده على التخطيط والتدبير لمسيرة الحياة ، بحيث يتمكن الإنسان من الاستمتاع بحياته على نحويجنبه مسالك الهلاك ، ومهاوى الدمار ، ويبعده عن دروب العذاب والمعاناة ، سواء كان ذلك عاجلا أم آجلاً .

كان على رأس المصلحين والمفكرين الذين قادوا مسيرة النهضة فى المجتمع الإنسانى:

## الأنبياء والرسل

فقد دعوا إلى تحرير الإنسان من سلطة الكهنوت وترهاتهم ، التى كبلت حريته ، وشلت إرادته ، فحاصرته بسيل من المحرمات ، حتى أصبح سجيناً وسط كم هائل من النصوص التى حولته إلى دمية يحركها الكاهن كيف يشاء ، وفى أى اتجاه يريد ، وبذلك أصبح الإنسان عبداً لا يملك نفسه ، فالكاهن هو الذى يحدد له طعامه ، ويعين له شرابه ، وهو الذى يرسم له حركاته وسكناته ، حتى تدخل فى أدق الأشياء خصوصية ، فبين له كيفية اتصاله بزوجته وأسلوب بناء بيته وترتيب أثاثه .... و.... الخ

هاجم الأنبياء تعنت الكهان وتحجرهم على النصوص ، فعابوا عليهم تمسكهم باحترام النص ، وإهدار حق الإنسان فى الحياة الكريمة، فلا قداسة لنص يسلب الإنسان حريته ، ويجرده من آدميته ، فالنص المقدس هو الذى يحفظ للإنسان كرامته ، ويسمح له بحرية الحركة ، واستخدام الإرادة النابعة من ذاته .

يهاجم أشعياء الكهنة قائلا:

**" أما أنتم فتُدْعَوْن كهنة الرب تُسَمَّوْن خُدَّامَ إلهنا . تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتآمرون "** [٥٣]

ويتهمهم حزقيال بأنهم خالفوا شريعة الله وخلطوا بين الحلال والحرام :

**" وكان إلىَّ كلامُ الرب قائلاً : " ..... كهنتها خالفوا شريعتى ونجسوا أقداسى ، لم يميزوا بين المقدَّس والمحلَّل ، ولم يعلموا الفرق بين النجس والطاهر ، وحجبوا عيونهم عن سُبُوتى فتدنَّستُ فى وسطهم...."** [٥٤]

---

٥٣) سفر أشعياء : ٦١: ٦

٥٤ ) سفر حزقيال : ٢٢ : ٢٦

ويشبههم هوشع باللصوص ، حيث يقول :

" وكما يكمن لصوصٌ لإنسان كذلك زمرة الكهنة فى الطريق يقتلون نَحْوَ شَكِيم ، إنهم قد صنعوا فاحشة . " [٥٥]

كما جاء فى صفنيا أنهم نجسوا القدس بمخالفتهم للشريعة :

" كهنتها نجسوا القدس خالفوا الشريعة . " [٥٦]

فإذا تركنا العهد القديم وولينا وجهنا نحو العهد الجديد ( الإنجيل ) ، لوجدنا أن أسلوب الكهنة واحد فى كل العصور : تقديس للنص على حساب حرية الإنسان ، وتكبيل لإرادته بسيل من المحرمات ، اعتماداً على تأويل للنص ، بعيد كل البعد عن منطوقه ، – بل وأحياناً يعارض مفهومه – ، أو استناداً إلى روايات مدسوسة على صاحب الرسالة ، يحيط بها ويغلفها تهديد بالويل والثبور ، يصل إلى حد التكفير والخروج من رحمة الله لمن يتجرأ ، فيستخدم حريته فى التفكير ، استناداً إلى فهمه للنص ، أو رجوعاً إلى المبادئ التى نادى بها صاحب الرسالة ؛

جاء فى إنجيل متى :

" فى ذلك الوقت ذهب يسوع فى السبت بين الزروع . فجاع تلاميذه وابتدأوا يقطفون سنابل ويأكلون . فالفَرِّيسيُّون لما نظروا قالوا له : هو ذا تلاميذك يفعلون مالا يحل فعله فى السبت. فقال لهم: أما قرأتم ما فعله داوود حين جاع هو والذين معه ؟ كيف دخل بيت الله وأكل خبز التقدمة الذى لم يحل أكله له ولا للذين معه بل للكهنة فقط . أوَما قرأتم فى التوراة أن الكهنة فى السبت يدنسون السبت وهم أبرياء . ولكن أقول لكم إن ههنا أعظم من الهيكل. فلو علمتم ماهو . إنى أريد رحمة لاذبيحة . لما حكمتم على الأبرياء . فإن ابن الإنسان هو رب السبت أيضا ."[٥٧]

وفى إنجيل مرقس :

---

٥٥) سفر هوشع : ٦ : ٢٢

٥٦ )سفر صفنيا : ٣ :٤

٥٧ ) إنجيل متى : ١٢ : ١ ـ ٨

"واجتاز فى السبت بين الزروع . فابتدأ تلاميذه يقطفون السنابل وهم سائرون . فقال له الفَرِّيسيّون : انظر لماذا يفعلون فى السبت مالا يحل . فقال لهم : أما قرأتم قط ما فعله داوود حين احتاج وجاع هو والذى معه . كيف دخل بيت الله فى أيام أَبِيأَثار رئيس الكهنة وأكل خبز التقدمة الذى لايحل أَكْلُهُ إلا للكهنة وأعطى الذين كانوا معه أيضاً .ثم قال لهم : السبت إنما جُعِل لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت . "[٥٨] أى أن النصوص لخدمة الإنسان , وليس الإنسان عبداً للنصوص . [٥٩] لكن تعاليم المسيح عليه السلام اختفت بمرور الزمن وراء كم هائل من الروايات التى اعتمدتها الكنيسة دون دليل قاطع على صحة نسبتها إلى عيسى عليه السلام وتوارت القيم التى نادى بها بين التأملات التى دعمت سلطة الكنيسة على حساب حرية الإنسان وكرامته ، فكثرت المقدسات ، وتضخمت المحرمات ، حتى صار الدين قيداً يعرقل مسيرة الحياة ، ويعوق حركة التقدم والتطور ، فأُصيبت المجتمعات بفيروس التخلف نتيجة للعقم الفكرى الذى أصاب الإنسان من جراء التعاليم الكهنوتية والمحرمات الكنسية .....حتى جاء محمد ﷺ برسالته الخالدة ، فأعلن أن الله كرم الإنسان ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [ الإسراء: ٧٠ ] ، ولا كرامة لإنسان مسلوب الإرادة ، لايملك حرية التفكير والنظر إلى ماحوله بدافع من ذاته ، فالعبيد لاكرامة لهم ، كذلك لاقيمة لمن لم يملك حريته فى توجيه سلوكه وتعيين مسار حياته ، واختيار مايقتنع به ، واعتناق مايروق له من أفكار ومبادئ ، حتى الإيمان بالله لايكون صحيحاً إلا إذا كان صادراً عن اقتناع ، ولن يكون ذلك إلا إذا كان المرء حراً فى اتخاذ قراره ، ولهذا رُفِع القلم عن المكره ، فلا التزام عليه فيما يقره تحت الضغط والتهديد ، فقد قال رسول الله ﷺ :

" إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استُكرِهوا عليه "[٦٠]

ولا يدرك الإنسان قيمة الحرية ، ومدى أهميتها فى حياته ، إلا إذا كان قادراً على فهم ذاته ، ومدركاً لدوره فى الحياة ، وملماً لنوعية العلاقة بينه وبين الآخرين ، سواء كان ذلك فى

---

٥٨) إنجيل مرقس : ٢ : ٢٣ – ٢٧

٥٩) انظر أيضا : لوقا ٦ : ١-٥ ، ويوحنا ٥ : ١٠ -١٨

٦٠) ابن ماجة

محيط أسرته ، أو ساحة الحياة مع أفراد مجتمعه القُطْرِىّ أو العالمى ، ومن هنا جاءت أول آيات القرآن الكريم تحثه على العلم ، يقول تعالى :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [ العلق : ١-٥ ]

بل تدفعه إليه دفعاً حتى يكون مُهَيَّأً لتوجيه الخطاب إليه ، ذلك الخطاب الذى يرسم له أسلوب حياته بما يشتمل عليه من حفظ الكرامة الإنسانية المتمثلة فى إعطائه حرية اتخاذ القرار بعد أن حصل على العلم الذى يمكنه من تصويب حياته بنفسه ، دون ضغط أو إكراه من أحد .

فإذا أردنا ترتيب المبادئ الإسلامية حسب أهميتها ، نجد أن أول مبدأ أرساه الإسلام هو: **الحث على العلم والثقافة** ، لأنهما مفتاح عالم الحرية للإنسان ، وآلية التخلص من وصاية الآخرين عليه ، مهما كان مركزهم الاجتماعى ، أو وضعهم الروحانى.... حتى الأنبياء ليس لهم سلطان على أحد ، يخول لهم إجباره على اعتناق مالايقتنع به ؛ ولهذا كان المبدأ الثانى فى رسالة محمد ﷺ :

**الاعتراف بحرية الآخرين**

حتى ولو ترتب على ذلك عدم الاعتراف برسالته ، فخطاب الرسول ﷺ للناس كان على أساس عرض الدعوة فقط ، دون إكراههم عليها يقول تعالى :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [ البقرة : ٢٥٦ ]

ويقول :

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [ يونس : ٩٩ ]

فلو انتشر التعليم فى المجتمع ، تمسك أفراده بحريتهم ، فلا يقبلون ضيماً ، ولا يقرون استعباداً ، ولا يرضون بذل أو مهانة تحط من قدرهم ، بل إن العلم والحرية دعامتان يقوم عليهما الرخاء والهناء فى الحياة المادية ، ويرتكز عليهما أسس الاستقرار فى المجتمع ، فيسود الأمن

والطمأنينة بين جنباته ، وترفرف أعلام الازدهار والتقدم في كل مؤسساته ، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ، لأن المتعلم إذا كان مسلوب الحرية ، دُفِنَت ملكاته بين ضلوعه ، وضاعت مواهبه في سراديب ظلام العبودية ، وخبت نور علمه وسط ضباب الاضطهاد والجمودالفكرى ، بل إن من لاحرية له ، لايملك أدوات تحصيل العلم ، اللهم إلا ترديد مايمليه عليه الطغاة ، فيردد نصوصاً صماء لاتسمن ولا تغنى من جوع . كذلك الحرية بدون علم كارثة ، فكثير من كوارث الإنسانية كان أساسها جاهل وضعته الظروف في موقع لايُسأل فيه عما يفعل ، فعاث في الأرض فساداً بجهله وجبروته .

يدعو الإسلام إلى العلم ، لأنه مفتاح التقدم والازدهار ، ويقدس حرية الإنسان كي يصون كرامته ، ويحمى إرادته ، ليصبح قادراً على توظيف علمه وثقافته لخدمة نفسه ومجتمعه ، فيختار ما يقتنع به ويرضى عنه ، ويبنى حياته دون ضغط أوإكراه ، ومن كان هذا شأنه :

- استقام أسلوبه في العمل ، فلا تخاذل ولا تكاسل ، ولا إهمال ولا تهاون ، بل جد ومثابرة وإتقان وإبداع .
- واستوى سلوكه مع نفسه ، وحَسُن تعامله مع الآخرين ، فلا نفاق ، لأن بذرة النفاق تنبت في مجال انعدام الحرية ، وهو يتمتع بها ، وتزدهر في محيط الخوف والرعب ، وهو لايخاف أحداً ، لأنه تسلح بالعلم ، وتحصن بالحرية في جميع مجالات حياته ؛ فهو حر في اختيارعقيدته ، وصاحب إرادة في سلوكه ، ويتمتع بحرية التعبير عما يميل إليه في ظواهر المجتمع ومشكلاته .

على هذا المنهج تربى المسلمون الأوَل ، فكانوا من أحسن العناصر التي كونت المجتمع الإسلامى الأوَّل ، عبروا عن آرائهم ..... حتى ولو كانت مخالفة لرأى رسول الله ﷺ فيما يتعلق بشئون الحياة ؛ فقد روى أن الحباب بن منذر بن الجموح اعترض على ماارتآه رسول الله ﷺ في منازل الجيش يوم بدر ، فقال يارسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله تعالى ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخره ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فرد عليه الرسول ﷺ بأنه الرأى والحرب والمكيدة ، فقال الحباب : يارسول الله ، هذا ليس بمنزل ، فامض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فتنزله ، ثم تغور ماوراءه من القلب ، ثم تبنى حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل

القوم ، فتشرب ولا يشربون . فاختار الرسول ﷺ ذلك المنزل وأخذ برأى الحباب بن منذر ونفذه كاملاً .

كذلك اعترضت امرأة على فتياه ﷺ حين اشتكت إليه أن زوجها قد ظاهرها ، فقال لها : قد حَرُمتِ عليه ، فجادلته وحاورته ، فنزل قوله تعالى :

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [ المجادلة ١ ]

كان التعبير عن الرأى بحرية معلماً من معالم المجتمع الإسلامى ، وسمة من سماته الأصلية ، يشهد على ذلك مانراه فى كتب التراث من آراء متعددة فى المسألة الواحدة ، واتجاهات تكاد تكون متعامدة فى تعاليم الإسلام وشرائعه ، ابتداءً من الأمور التى تتعلق بمصالح العباد ، ومروراً بالعبادات ..... حتى مبادئ العقيدة نفسها ..... اختلف فى تفسيرها وتأويلها فطاحل العلماء ومؤسسو المذاهب العقدية والفقهية .

تقبل المجتمع هذه الظاهرة وتعامل معها بفكر وروية ، فاختار كلٌّ مايروق له من الآراء ويطمئن إليه ، كما دافع أصحاب الآراء عما يرونه صحيحاً بالحجج والأسانيد ، ودحض أدلة المخالفين لهم وتأويلاتهم ، دون أن يكفر أحد الآخر - إلا ماندر - ؛ إذ كان الطابع العام هو مناقشة الحجة بالحجة ، ودعم الرأى بالأسانيد والأدلة ، ومن خرج عن ذلك إلى الطعن والتكفير ، طواه التاريخ ، وأهملته ذاكرة الأمة ، فلم يترسب فى ذاكرتها إلا من أسس مذهبه على أدلة واضحة ، وتحاور مع الآخرين باحترام وأدب وسادت مناقشة العلماء المقولةُ الشهيرة :

" رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب . "

كما دعا الشافعى ﷺ إلى عدم التعصب للرأى بقوله :

" إذا صح الحديث فاضربوا بمذهبى عرض الحائط . "

ورُوِىَ عن أبى حنيفة ﷺ أنه قال :

" هذا رأينا وهو أفضل ماوصلنا إليه ، فإن جاءنا ماهو أفضل منه أخذنا به . "

كانت هذه هى الروح العلمية السائدة - باستثناء حالات فردية هنا وهناك — فى المجتمع الإسلامى الأول :

- تحصيل العلم هو القيمة العليا فى المجتمع ،
- تسانده وتؤازره ، وتنميه وترعاه : حرية التعبير ،
- ويحميه ، ويزود عنه ، ويحافظ عليه : احترام الرأى الآخر ، والدفاع عن حرية الآخرين فى التعبير عن آرائهم ، مهما اختلف المرء معهم ...

وبذلك شيد المسلمون صرحاً حضارياً ظل مفخرة لهم على امتداد التاريخ حتى اليوم ... فحين يحس المسلم بالمهانة ، يتذكر ما بناه أسلافه فى جميع مجالات الحياة ، ويظل يجتر تاريخ أجداده دون كلل أو ملل ، لأنه يجد فى ذلك راحة نفسية ، ويشعر بنوع من إثبات الذات بين العمالقة فى المجتمع المعاصر .

لم يخفت نور الحضارة الإسلامية ، ويتلاشى بهاؤها وضياؤها ، إلا عندما اختفت هاتان الظاهرتان من المجتمع الإسلامى ، حيث أصبح تحصيل العلم تكراراً لما قاله السابقون ، واجتراراً لما تركه الأولون . وليت الأمر اقتصر على ترديد كل ما أنتجه الأولون من أفكار ونظريات ، بل اقتصر على التمسك بآراء لم يكن لها صدى فى المجتمع الإسلامى الأول ، إذ كانت ضعيفة ، ولا يمثلها سوى حفنة صغيرة ممن استغلق فهمهم ، وجمدت قرائحهم . وكان وجود مثل هذه الآراء بين الاتجاهات الفكرية التى قادت الأمة إلى بناء نهضتها وحضارتها ، شاهداً على حرية الفكر ، ودليلاً على سيادة مبدأ احترام حرية الآخرين فى التعبير عن أفكارهم ، حتى ولو لم يكن لها سند يقويها . ذلك هو المناخ الذى يؤهل الأمة - أية أمة مهما كان عقيدتها - لأن تتبوأ مكاناً سامياً فى صفحات التاريخ ، بما تهيئه لها هذه الحركة الفكرية من قدرة على البناء والتشييد فى جميع مجالات الحياة .

لو اقتصر ترديد الأمة على كل ماكان موجوداً على الساحة الفكرية ، لوجدنا من بينها ما يدفعنا إلى الأمام ، حتى ولو كان التحرك إلى الهدف بطيئاً ، ولكن للأسف الشديد ، ردد العلماء

آراء ضعيفة ، واجتروا مفاهيم ليس لها من القوة مايساعد الأمة على الاستمرار فى نهضتها ، فتوقفت حركتها ، بل تراجعت حتى سقطت فى هاوية التخلف :

- فأُلِفَت التحجر على الأفكار الضعيفة ، رافضة محاولات الفهم لقضايا العصر والاجتهاد فى تأويل النصوص لدفع المسيرة إلى الأمام .
- ورفضت كل ماهو جديد دون النظر فيه ، أوالالتفات إلى أهميته فى دفع مسيرة الحياة إلى الأمام ؛ رفضته بحجة أنه بدعة ، اعتماداً على موروث مشكوك فى صحة نسبته إلى رسول الله ﷺ .
- ونقبت فى ثنايا التراث عن كل مايدعو إلى التقوقع على الذات ، ويدعو إلى الانكفاء إلى الوراء ، ويؤيد رأى الداعين إلى غلق كل نوافذ الثقافة ، بحيث لا يتسرب منها إلى داخل المجتمع الإسلامى أى شعاع يأخذ بيد المسلمين إلى التقدم والازدهار .
- وفى سبيل الدفاع عن هذا الاتجاه جردوا كل أسلحتهم لقمع كل من يخالفهم فى الرأى ، أو يحاول إلقاء الضوء على جوانب مضيئة فى التراث تمدد مواقفهم ، وتزعزع وضعهم فى المجتمع كمتحدثين باسم الإسلام . ولما كانت بضاعتهم الفكرية لاتقوى على الصمود أمام الفكر المستنير ، الذى يدعو إلى فتح باب الاجتهاد ، فيفحص التراث ليأخذ منه مايلائم عصره فإن لم يجد ، استخدم عقله فى فهم النصوص ، معرضاً عن الآراء الضعيفة ، داعياً إلى مراعاة ربط فهم السلف للنص بملابسات الحدث ووضعه فى إطاره التاريخى ، استخدموا سلاح التكفير ضد كل من يخالفهم ، حتى ولو كان موضوع الخلاف لايتجاوز مرتبة السنة ، أولا يخرج عن دائرة المحسِّنات ، أى ليس فرضاً ولا سنة مؤكدة .

وليس اتهام المخالفين لهم قاصراً على محدودى الثقافة منهم ، بل هو سمة عامة فى صفوفهم ، اتخذوه سلاحاً ضد كل من يعارضهم ، خوفاً على ضياع هيبتهم أمام العامة ، ودفاعاً

عن مراكزهم الاجتماعية ووضعهم الاقتصادى ، ولذا نرى قادتهم وأولوا الرأى منهم يكفرون من يختلف معهم فى الرأى ، ويهددونه بقطع رزقه كلما كان ذلك متاحاً لهم ؛ فقد حضرت ندوة فى إحدى جامعات دول الخليج ، اشتد فيها النقاش بين أحد رموز الجماعات الإسلامية : " الكبار" وبين أستاذ جامعى ، خرج عن جماعتهم ، لأنه رأى فيها اعوجاجاً عن طريق الإسلام ، واكتشف فى تصرفات أعضائها ما يخالف تعاليم الإسلام ، مما جعله يقارن بين أقوالهم وأفعالهم ، فوصل من هذه المقارنة إلى أنهم لايلتزمون بالإسلام كما يدعون إلا بمقدار ما يخدم مصالحهم ، ويحافظ على وضعهم الاقتصادى .

اشتد النقاش بين هذا الأستاذ وبين "قطب" الجماعة الإسلامية ، حتى حاصره الأستاذ بالأدلة القرآنية التى تدحض ما ذهب إليه هذا القطب" الذى يطلقون عليه لقب " المفكر الإسلامى الكبير" ، فلما لم يجد مفراً انطلق وعيده وتهديده ، وكان مما قاله : "إن من يقول بهذا الرأى ليس له مكان فى كليتنا ."

ومن الغريب أنه يصرح فى كثير من المناسبات بأنه رجل عصرى ، يفهم الإسلام بروح العصر ، ويدعو إليه بأسلوب يتفق مع متطلبات المجتمع المعاصر ..... قد يكون ذلك صحيحاً فى بعض المواقف التى تمس وضعه الاقتصادى ، أو فى حالات يريد أن يظهر فيها أمام محدثيه أنه ليس متزمتاً ، أو أنه يفهم من علوم العصر مالا يدركه أقرانه ، فليست هذه المواقف " الموسمية " سمة عامة لديه ، بل هى ومضات لاتلبس أن تختفى وراء تكوينه الثقافى ، وأسلوبه الذى تربى عليه بين صفوف هذه الجماعات ، ناهيك عن أن أسلوبه فى التهديد لا يقره الإسلام !!!!! ماذا فعل مع هذا الأستاذ فيما بعد ؟؟؟؟؟ استعدى عليه رجال الأمن فى هذا البلد ، – بعدما أعيته الحيلة مع إدارة الجامعة – حتى استصدر قراراً أمنياً بإنهاء عقده ، فأين هذا مما كان يفعله الرسولﷺ مع أصحابه .... وحتى مع أعدائه ، ألم يقرأ قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴿٨﴾ ﴾

[ المائدة : ٨ ]

إن تقديس آراء السابقين مخالف لروح الإسلام وتعاليمه ، ومناقض لما أثِر عن الرسول ﷺ من حث المسلمين على الاجتهاد فى فهم النصوص ، ومتعارض مع أهم مبدأ قامت عليه الحضارة

الإسلامية التي يتغنون بها حتى الآن ، ألا وهو : حرية الرأى ، واحترام رأى المعارضين ؛ إذ لو لم يوجد هذا المبدأ في المجتمع الإسلامي ماقامت لهذه الحضارة قائمة ، ولا شاهدنا تلك الإنجازات التي يفخر بها المسلمون أمام شعوب العالم ، فلا قيام لحضارة في الإرهاب الفكرى ، ولا مكان للتقدم والرقى إلا إذا تصارعت الأفكار ، وتحاورت العقول ، وتدافعت الأراء المختلفة في ساحات العمل ، وتنافست قوى الإبداع في مجالات الفنون الابتكار ، وهذا ماهيأه الإسلام للمسلمين الأوَل بإرسائه لمبدأ الحرية في جميع مجالات الحياة ، لا يُنقِص منهاإلا ماورد فيه نص صريح وقطعى الدلالة في القرآن الكريم ، ولا يقيدها إلا ماكان لازماً لسلامة المجتمع ..... مبدأ إسلامى عام :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾

حتى ولو ترتب عليه عدم الإيمـــان بالإسلام ؛ فالإنسان حر فيما يعتقد ، وفيما يعمل ، وفيما يحب ، لايحد من حريته إلا النظام العام للحياة ، فلا ضرر ولاضرار ، وما عدا ذلك فهو حر حرية كاملة .

أما ما ينادى به من يتصدرون قوافل الدعوة الإسلامية من وجوب الاتباع لرأى معين دون غيره من الآراء فهو مخالف لتعاليم الإسلام ، بل هو ارتداد إلى ما كان يمارسه الكهنة ورجال الدين قبل الإسلام من تأويل للنصوص المقدسة تأويلاً يجعل المؤمنين أداة طيعة في أيديهم يوجهونهم حيث يشاءون ، تارة بالإرهاب والتخويف ، وأخرى بإيهامهم أن أمل النجاة منحصر في طاعة أوامرهم ، وتنفيذ ما يُطلب منهم بصرف النظر عما يُخَلِّف هذا العمل من آثار ، فهم في طاعة الله مادامو في طاعة هذا الكاهن ؛ لأنه أوهمهم أنه لايتكلم إلا باسم الله ، ولا يأمرهم إلا بناءً على وحى الله المنزل على رسله ، فإذا عترض بعض المؤمنين على بعض آرائهم رموه بالكفر والزندقة ، وطردوه ـــ طبقا لما يدعيه هؤلاء الكهنة ـــ من رحمة الله .

أليس مانشاهده اليوم على الساحة الإسلامية من فرض الرأى بالقوة ، ومحاربة المخالفين في أرزاقهم ، ورميهم بالكفر والزندقة هو بعينه ما كان يفعله الكهنة ورجال الدين قبل الإسلام ؟

ألا يعتبر تخويف الإنسان من كل مايحيط به ، وتكبيله بطقوس فى كل حركاته وسكناته – حتى أصبح عبداً لأساطير وخرافات لاتمت إلى الإسلام بصلة – إلى أن صار عاجزاً عن الإبداع والابتكار ، ومُعَوَّقاً فى كل مجالات المنافسة الحضارية المعاصرة ، مما جعله أشبه بالإنسان البدائى التى حاصرته تعاليم السحرة والكهنة ، فمسخته دمية فى يد من يَدَّعى أنه يملك أسرار ماحوله .....؟

ألا يعتبر هذا ردة إلى وضع الإنسان فى العصور الأولى الذى جاءته الأديان لتخلصه منها ؟

جاءت الرسالات السماوية لتحرر الإنسان من الخرافات والأساطير ، ولترد إليه كيانه وذاته ؛ فمنحته الحرية فى التعبير والاعتقاد حتى يتمكن من الوصول إلى مايسعده فى الدنيا والآخرة ..... وكان كلما مر الزمن وغيَّر الكهان ورجال الدين ماخلفه الأنبياء ليُحْكِموا سيطرتهم على الناس ..... أرسل الله نبياً آخر ليحرر الناس مما أوهمهم به الكهان ... حتى جاء محمدﷺ بالرسالة الخاتمة ، وحفظها الله فى قرآنه المجيد الذى لم يستطع رجال الدين أن يغيروا شيئاً من نصوصه ، فالتفوا حوله بتأويلات وتفسيرات ، وطمسوا معالمه بمأثورات لاسند لها ، وجمَّدوا مبادئه بمرويات عن علماء اجتهدوا لمواجهة متطلبات عصرهم ، ونسوا أوتناسوا أن مفهوم صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان أنه جاء بمبادئ عامة – فى كثير من تعاليمه – تستطيع كل المجتمعات أن تلتزم بها دون أن تنسلخ عن إطارها التاريخى ، ومقتضيات بيئتها المحلية .

ومن يفهم غير ذلك فإنه يجمد مبادئ الإسلام فى ثلاجة التاريخ ، ويريد أن يَرُدَّ الإنسان إلى العصور البدائية ، حيث كان الإنسان مسلوب الإرادة من كثرة القيود التى وضعها الكهان على عاتقه .